

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثالث

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعد...

أيها الإخوة الأكارم في الليلة البارحة واللييلة التي قبلها بدأنا ببعض المقدمات في الإيمان، ونواصل في هذه الليلة مستعينين بالله وحده في تميم هذا الموضوع ببيان بعض المقدمات المهمة التي يُحتاج إليها في دراسة الإيمان والعقيدة الإسلامية الصحيحة المتلقاة من كتاب الله ﷻ وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

وقد أشرت فيما سبق إلى مكانة الإيمان وعظم شأنه وشدة حاجة الناس إليه، وأن الإيمان هو زينة المرء الحقيقية وجماله وبهاؤه وحسنه، قد جاء في حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه في الدعاء الذي كان يدعو به النبي ﷺ في صلاته، وفي آخر الدعاء يقول عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ زِينًا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»، فالإيمان هو الزينة الحقيقية؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ فَأَلَيْمَنَ زِينَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴿٨﴾ [الحجرات]، ولما ذكر تبارك وتعالى اللباس الذي يوارى سوءة الإنسان والزينة التي يتزين بها الإنسان ويوارى بها سوءته قال الله: ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَىٰ ذَٰلِكَ حَيْرٌ ﴿٤٦﴾﴾ [الأعراف: ٤٦]، ولباس التقوى هو لباس الإيمان، فالإيمان لباسٌ وزينةٌ وجمالٌ وحليةٌ وبهاءٌ لمن من الله تبار وتعالى عليه به.

وكثير من الناس ذهبت أفهامهم وانصرفت عقولهم إلى الانشغال بالزينة الحسية عن الزينة الحقيقية، انشغلوا بزينة اللباس وتوسعوا في هذا الأمر توسعًا في بعض حالاته يخالف الشريعة ويضر بالدين وينقص الإيمان، ولا سيما من ابتلوا من الرجال والنساء بالتشبه بأعداء الدين في لباسهم وهيئتهم وطريقة قصهم لشعرهم وما إلى مما وجد في بعض من ذهب عنه معنى اللباس الحقيقي والزينة الحقيقية.

فعلينا أن نعلم أن جمال المرء وزينته حقيقة وصدقًا وبهاؤه بهذا الإيمان، فإذا انسلخ المرء من الدين وعدم فيه الإيمان فإنه لا زينة فيه، حتى وإن تجمل بثيابه أو بهرج نفسه بزينته أو نحو ذلك لا جمال له فيه

ولا زينة؛ لأن الزينة حقًا والجمال صدقًا إنما هي بالإيمان الذي خلقنا لأجله وأوجدنا لتحقيقه.

والإيمان هو حياة الإنسان الحقيقية وبدون الإيمان تكون حياته بهيمية شبيهة بالأنعام التي تأكل وتشرب وتلعب، فبالإيمان يكون حيًا حياة حقيقية؛ ولهذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ① يُزَلُّ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل]، فسمي الوحي روحًا؛ لأن فيه حياة القلوب وذهاب موتها، فالقلوب تحيا بالوحي كما يحيا النبات والعشب بالماء، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ② أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد]، وهذا فيه لفت انتباه كما أنه تبارك وتعالى يحيي الأرض الميتة بعد موتها بالماء فإنه تبارك وتعالى يحيي القلب الميت بالوحي، فحياة القلوب حقيقة إنما تكون بالإيمان.

فالإيمان هو الحياة حقيقة، وهو الزينة حقيقة، وهو الجمال حقيقة، وهو الذي به سعادة الدنيا والآخرة، وبه أيضًا حيازة الفلاح كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ③ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ④ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ⑤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ⑥ [البقرة]، فأهل الإيمان هم الذين جمعوا الخير كله وحازوه من جميع أطرافه في الدنيا والآخرة، وقال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ⑦ [المؤمنون]، فالفلاح إنما يُنال بالإيمان، وفي الحديث يقول عليه الصلاة والسلام: «قولوا: لا إله إلا الله؛ تفلحوا» إلى هذا كان يدعو صلوات الله وسلامه عليه.

وقد أشرت فيما سبق إلى شيء من ثمار الإيمان، ومن المهم في دراسة الإيمان أن يعرف طالب العلم قيمة الإيمان ومكانته وثمراته وعوائده عليه في الدنيا والآخرة؛ لأنك كلما عرفت قيمة الإيمان ومكانة الإيمان والثمار العديدة التي ينالها أهل الإيمان ازدادت حبًا في الإيمان ورغبة في الاستمسك به وحرصًا على الثبات عليه، فإذن هذه من المقدمات المهمة أن يعرف طالب العلم وأن يتوسّع في معرفة ثمار الإيمان، وقلت لكم: إن الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان»

أجاد وأفاد في هذا الباب وتوسع في ذكر الدلائل من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه المبيّنة لثمار الإيمان الحميدة وفوائده المباركة وعوائده الطيبة على أهل الإيمان في الدنيا والآخرة.
ثم إنَّ الإيمان له أسماء باعتبار متعلقاته:

فهو يسمى «الإيمان» باعتبار أن المطلوب من المؤمن الإقرار والانقياد والإذعان والامتثال لله تبارك وتعالى، مطلوبٌ منه أن يؤمن بالله وبكلِّ ما أمره تبارك وتعالى بالإيمان به.

ويسمى «التوحيد» -خاصّةً الإيمان بالله جل وعلا-؛ لأن مبنَى الإيمان على الإيمان بوحداية الله: في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وهذه أركانٌ للإيمان بالله، فالإيمان بالله هو الإيمان بوحداية الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وإنما سُمِّيَ دين الإسلام توحيداً؛ لأن مبناه على الإيمان بوحداية الله، وحدانية الله في ربوبيته، ووحدايته تبارك وتعالى في ألوهيته، ووحدايته في أسمائه وصفاته.

ويسمى هذا العلم: «أصول الدين» أو أصول الإيمان؛ لأن المسائل التي تُبحث فيه أصول يبنى عليها الدين وأسس يقوم عليها، ومن المعلوم أن الأساس بالنسبة للبناء بمثابة العماد الذي يرتكز عليه ويقوم، وقد قيل:

والبيت لا يُتِنَى إلا بأعمدة ولا عماد إذا لم تُرسَ أوتادُ

فأصول الإيمان مكانتها بالنسبة للإيمان وأعماله وشرائع الدين بمكانة أصل الشجرة من الشجرة، وبمكانة الرأس من الإنسان، وبمكانة العماد والرُّكن من البناء، وبمكانة عمود الخيمة الذي لا قيام لها إلا عليه، فالإيمان لا يقوم إلا على أعمدة وأصول وأركان، ولهذا سُمِّيت العقيدة أو التوحيد أو مسائل الإيمان: أصول الإيمان؛ لأن قيام الإيمان إنّما يكون عليها.

ونحن نعلم أن البيت الذي يقوم على أعمدة إذا انهدم عمودٌ منها انهدم البيت، والشجرة القائمة على أصل إذا قُطع أصلها انهدمت الشجرة، فأصول الإيمان هي للإيمان أساسٌ ولبنائه عمادٌ لا يقوم إلا عليها، ولهذا تأمل هذا المعنى المبارك في قول الله تبارك وتعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم]، وهذا مثلٌ ضربه الله تبارك وتعالى للإيمان، فالإيمان مثله مثل الشجرة، والمراد بالشجرة هنا تحديداً النخلة؛ لأنه ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ فسّر الشجرة هنا بالنخلة، والحديث له قصة -لعل الكثير منكم يعلمها- وهي أن النبي عليه الصلاة والسلام أوتي بجُمّار نخلة، وجُمّار النخلة هو قلبها، وطعمه

لذيذ ونكهته طيبة، ومن يعرفه يعجبه مذاقه، فأوتي عليه الصلاة والسلام بجُمَّار نخلة فأكل من جمارها ثم تركه أمامه، ثم حدّث الصَّحابة سألهم قال: «أخبروني عن شجرة لا يتحاتُّ ورقها» ولا كذا ولا كذا، يعني ذكر صفات، «ما هي؟» وأمامهم جُمَّار النخلة أكل منه عليه الصلاة والسلام ثم سألهم هذا السؤال، وهذه -على التعبير المعاصر الآن- وسيلة إيضاح أمامهم تقربَّ الجواب وتُدني إلى الذهن الفهم، فقال: "أخبروني عن شجرة لا يتحات ورقها ولا يتساقط" وذكر صفات «فخاض الصحابة في شجر البوادي» ذهبوا بعيداً وأخذ كلُّ يقترح ويسمِّي شجرة من أشجار البوادي، أشجار يعرفونها في البادية متماسكة ورقها قوي ما يتساقط، فبدأ كلُّ يسمِّي شجرة من شجر البوادي، ابن عمر كان ممَّن حضر هذا السؤال يقول: «فوق في نفسي أنها النخلة» ولكن والده حاضر، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه حاضر، فمكانة هؤلاء في قلبه جعلته يستحي أن يقول: هي النخلة، وانظروا وقار صغار الصحابة لكبار الصحابة، وجمال أدب الصحابة رضي الله عنهم في حديثهم واحترامهم للكبار وتوقيرهم لهم، الآن الصَّغير ما يبالي لو والده في المجلس ولو في عالم أو شيخ في المجلس يرفع صوته ويتكلَّم، فقال ابن عمر «وقع في نفسي أنها النخلة، ولم يمنعني أن أقول هي النخلة إلا مكانة أبو بكر وعمر» فجلس ساكناً وهو عنده الجواب، ونفسه تودُّ أن يقول الجواب، والجواب في نفسه؛ ولكنه ساكت لمكانة والده، فما أجمل هذا الأدب! فلما ما أجاب أحد بالجواب الصحيح قال عليه الصلاة والسلام: «هي النَّخلة»، يقول ابن عمر: (فلما خرجنا من المجلس قلت لأبي: والله لقد وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تقول) الأب يفرح أن ابنه يجيب الجواب الممتاز والجيد، قال: ما منعك أن تقول، والله ما منعني إلا مكانك ومكان أبي بكر، قال: والله لو كنت قلت -يعني أجبت بذلك- فإنه أحب إليَّ من كذا وكذا. يعني: ودَّ أنه لو أجاب على هذا السؤال.

الشاهد أن النبي عليه الصلاة والسلام فسّر الشجرة المذكورة في الآية بأنها النخلة، ولهذا في بعض طرق الحديث «أن النبي عليه الصلاة والسلام تلا هذه الآية وقال: أخبروني عن شجرة لا يتحات ورقها» ولا كذا «ضربها الله مثلاً للمؤمن»، فذكر أنها النخلة.

النخلة -ولا أريد حقيقة أن أتوسع في هذا الموضوع حتى لا نخرج عن المقصود- النخلة لها أصل ولها فرع بهذا وصفها الله قال: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾، ومَن يعرف النَّخيل النخلة كل ما طابت الأرض ويحسن سقيها تضرب أصولها في بطن الأرض وتعرّض وتمتد إلى أماكن عميقة في الأرض، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾

وَفَرَعُهَا فِي السَّكَمَاءِ ﴿٢٤﴾، كل ما كان الأصل قويًا متمكنًا في الأرض بدأ التفرع يزيد وبدأ التمر وجود ويحسن، ولهذا النخلة من عجائبها أنها ما تثمر في كل أرض وأحيانًا ما تنبت في كل أرض، في بعض الأراضي تموت وفي بعض الأراضي ما تثمر، والإيمان ما ينبت في كل قلب، إنما ينبت الإيمان في القلب الذي كتب الله ﷻ له الهداية، ثم إنَّ الإيمان أصله في القلب وكلما رسخ الإيمان في القلب وتمكن منه وتعمق القلب من الإيمان بدأت فروع الإيمان ﴿تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: ٢٥] بالأعمال الطيبة والعبادات النافعة والأخلاق الزاكية والمعاملات الكريمة، تؤتي أكلها كل حين، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرَعُهَا فِي السَّكَمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾، هنا في هذه الآية ذكر الله تعالى أربعة وجوه للشبه بين المؤمن وبين النخلة:

الوجه الأول: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ الطيب، فالنخلة وصفها الطيب والمؤمن وصفه الطيب.

والأمر الثاني: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ ثبات الأصل، والمؤمن أصل إيمانه ثابت في قلبه.

﴿وَفَرَعُهَا فِي السَّكَمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾ النخلة فرعها يمتد في السماء وثمارها وأغصانها، والمؤمن تتفرع من شجرة إيمانه الأعمال الزاكية والأخلاق الطيبة والمعاملات الكريمة.

و﴿تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ أي: ثمارها، والنخلة لها ثمار وهي تؤكل كل حين، وقت الرطب تؤكل رطبًا وفي بقية العام تؤكل تمرًا، وفي زماننا هذا أصبح ثمرها يؤكل رطبًا في كل السنة لأنها أصبحت في الحافظات والثلاجات، فأصبح الرطب يؤكل كل السنة، فثمرها يؤكل رطبًا على مدار السنة، بينما سابقًا يؤكل ثمرها على مدار السنة في أول ظهوره رطبًا ثم يؤكل في بقية العام تمرًا، فلا تُعدم غالب بيوت الناس من ثمر النخلة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «بيت لا تمر فيه جياع أهله».

شاهدي من ذلك أصول الإيمان، الإيمان له أصول وهذا واضح في هذا المثل الذي في هذه الآية الكريمة.

وتسمى أيضًا «العقيدة»؛ لأن العقد مأخوذ من الربط، عندما تقول: عقدت الحبل؛ أي: شدته وأوثقته. وتسمى أصول الإيمان وأمور التوحيد تسمى عقيدة، لماذا؟ لأنه لا يكفي فيها إلا الربط الجازم واليقين التام والإيمان الراسخ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥] أي: أيقنوا ولم يشكوا، فما يكفي مجرد الظن أو حصول الريب أو وجود الشك، ما يكفي، لا بد من العقيدة، يعني لا بد أن تعقد قلبك وتربط على قلبك بهذه الأمور بحيث تكون منعقدة في القلب مرتبطة في

القلب متمكّنة فيه، ولهذا سُمّيت عقيدة، وجاء في كثير من كتب السلف رحمهم الله تسمية أصول الإيمان: عقيدة، وهي تسمية صحيحة لأنها مبنية على معنى صحيح، والألفاظ قوالب المعاني، فعندما يقال: عقيدة -مثلاً- عبد الغني المقدسي، أو يقال: عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية، أو يقال: عقيدة الإمام أحمد بن حنبل، أو يقال: عقيدة الشافعي أو نحو ذلك، فيه كتب ألفت في التوحيد أو في الإيمان تسمى بهذا الاسم عقيدة فلان، وعندما يقال عقيدة فلان نسبتها إليه لأنه جمعها، فهي عقيدته باعتبار جمعه لها وباعتبار أيضًا إيمانه بها، وإلا العقيدة هي عقيدة كل مسلم لا تختص بمن ألفت الكتاب؛ لكن عندما نقول: عقيدة أو نحو ذلك؛ المراد بهذه النسبة: إيمانه بها هذا من جهة، وأيضًا جمعه لموضوعاتها وجمعه لأدلتها.

فهذه بعض أسماء هذا العلم: أصول الإيمان، التوحيد، الإيمان، العقيدة، وكلها تدور حول دلالات معينة.

بعض من بنوا أمور العقيدة على علم الكلام -وهذه من الأخطاء التي وجدت في بعض المدارس، مدارس التعليم في القديم والحديث- بنوا علم تدرّس أو دراسة العقيدة على علم الكلام، وقد قال الإمام الشافعي أو أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ما ارتدى أحد بالكلام فأفلح" لأننا عرفنا -قبل قليل- أن الفلاح في الإيمان، والمراد بالفلاح من الإيمان الفلاح المأخوذ من الكتاب والسنة، إقرأ معي مرة ثانية ﴿هُدَى لِّلْمُنَافِقِينَ﴾ يعنى: القرآن، ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ [البقرة]، فالفلاح ارتبط بماذا؟ بسلامة المصدر، ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، فمن بيني عقيدته على الكتاب والسنة يفلح، لكن من بيني عقيدته على علم الكلام ماذا يكون شأنه؟ يقول الإمام أحمد أو الشافعي -الآن لا أذكر تحديداً- يقول: "ما ارتدى أحد بالكلام فأفلح" ما معنى "ما ارتدى"؟ يعنى من جعل علم الكلام رداء له، بحيث يلزم علم الكلام ويحاول أن يعرف أمور الاعتقاد منه.

وفعلًا بعض الناس دخلوا هذا المدخل وأرادوا أن يعرفوا أصول العقيدة وأسس الدين وثوابت الملة من خلال علم الكلام، وخاضوا تجارب كلّها من أولها إلى آخرها باءت بالفشل بشهادة أساطين المتكلمين، والأمثلة في هذا تطول؛ لكنني أشير إلى شيء منها: الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» وقد خاض في علم الكلام وقال عن نفسه: "دخلت في العلم الذي نهاني عنه علماء الإسلام، ودخلت في

بحارِهِ، وَخَضَّتْ فِي بَحْرِهِ الْخِضَمَّ حَتَّى بَلَغَتْ نَهَائِهِ " هَذَا الْكَلَامُ يَقُولُهُ هُوَ فِي كِتَابِهِ «إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ»، ثُمَّ يَقُولُ: " وَقَدْ عَلِمْتُ -عِنِّي مِنْ خِلَالِ بَحْثِي الطَّوِيلِ، وَمَعَايِشَتِي الطَّوِيلَةَ وَالْمَدِيدَةَ لِهَذَا الْعِلْمِ- " وَقَدْ وَصَلْتُ إِلَى أَنْ الْوَصُولُ إِلَى الْحَقِّ مِنْ طَرِيقِ عِلْمِ الْكَلَامِ مَسْدُودٌ " هَكَذَا يَقُولُ، عِنِّي مَا يُمْكِنُ تَصَلُّهُ إِلَى الْحَقِّ مِنْ طَرِيقِ عِلْمِ الْكَلَامِ، وَقَالَ: " هَذَا الْكَلَامُ خَذَهُ مِنْ مَجْرَّبٍ، لَوْ سَمِعْتَهُ مِنْ مُحَدِّثٍ -عِنِّي مِنْ أَحَدِ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ- لَقُلْتُ: النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا؛ لِأَنَّ عُلَمَاءَ الْحَدِيثِ يَجْهَلُونَ عِلْمَ الْكَلَامِ فَيُذَمُّونَهُ لِأَنَّهُمْ يَجْهَلُونَهُ، لَكِنْ يَقُولُ: " خَذَ هَذَا مِنْ مَجْرَّبٍ "، أَنَا جَرَّبْتُ وَبَلَغْتُ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ نَهَائِهِ، وَقَدْ وَصَلْتُ إِلَى هَذِهِ النَّتِيجَةِ أَنَّ الْوَصُولَ إِلَى الْحَقِّ مِنْ طَرِيقِ عِلْمِ الْكَلَامِ مَسْدُودٌ، وَمَعَ ذَلِكَ -سَامَحَهُ اللَّهُ وَعَفَا عَنْهُ- لَمَّا ذَكَرَ الْعَقِيدَةَ فِي كِتَابِهِ «إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ» بَنَاهَا عَلَى عِلْمِ الْكَلَامِ، وَلِهَذَا مَا تَرَى فِي بَابِ الْعَقِيدَةِ فِي كِتَابِهِ «إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ» مَا تَرَى ذِكْرَ لِلآيَاتِ وَاسْتِدْلَالَ بِالْحَدِيثِ إِلَّا أُنْدَرُ النَّادِرِ، وَإِلَّا فَكُلُّ أَدْلَتِهِ بِمَا أَنَّهُ كَذَا إِذَنْ يَكُونُ كَذَا، وَلَوْ كَانَ كَذَا لَكَانَ كَذَا، وَمَضَى يَسْتَدِلُّ عَلَى الْعَقِيدَةِ بِهَذَا الَّذِي لَا يُوَصِّلُ مِنْ خِلَالِهِ إِلَى الْحَقِّ، وَالْوَصُولُ إِلَى الْحَقِّ مِنْ خِلَالِهِ مَسْدُودٌ.

وَآخِرِينَ مِثْلَهُ كَثُرَ دَخَلُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ وَبَعْضُهُمْ أَخَذَ يَصْرَحُ مِثْلَ الْجَوِينِيِّ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ قَالَ: " لَنْ لَمْ يَتَدَارَكْنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ فَالْوَيْلُ لِبْنِ الْجَوِينِيِّ "، ثُمَّ قَالَ: " الْفَائِزُ مِنْ مَاتَ عَلَى دِينِ الْعَجَائِزِ " يَعْنِي دَخَلَ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ وَتَوَسَّعَ فِيهِ، مَا وَصَلَ مِنْ خِلَالِهِ إِلَى شَيْءٍ! وَأَحَدُ الْمُتَكَلِّمِينَ يَحْكِي قِصَّتَهُ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ أَبِي الْعَزَّازِ فِي شَرْحِ «الْعَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» يَقُولُ: " آتَى فِي اللَّيْلِ وَأَعْطَى رَأْسِي بِالْمَلْحَفَةِ وَأَبْدَأُ أَعْرَضُ أَدْلَةَ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَهَذَا اسْتَدَلَّ بِكَذَا وَهَذَا اسْتَدَلَّ بِكَذَا " يَقُولُ: " حَتَّى يَأْتِيَ الصَّبَاحُ وَمَا عَرَفْتُ شَيْئًا "، فَدَخَلُوا فِي مَتَاهَاتٍ وَفِي اضْطِرَابَاتٍ وَفِي شَكُوكٍ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ:

نَهَايَةَ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالٌ وَأَخْرَسَ عِي الْعَالَمِينَ ضَالَالٌ

لَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ جَمْعِنَا طَوْلَ عَمْرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعِنَا قَيْلٌ وَقَالُوا

يَعْتَرِفُونَ اعْتِرَافَاتٍ بِأَنَّهُمْ مَا حَصَّلُوا عِلْمًا رَاسِخًا وَلَا عَقِيدَةَ ثَابِتَةً وَلَا إِيمَانًا يَقِينًا، وَإِنَّمَا دَخَلُوا فِي اضْطِرَابَاتٍ وَشَكُوكٍ، وَلِهَذَا أَكْثَرَ النَّاسِ حَيْرَةٌ وَأَعْظَمُ النَّاسِ شَكًّا: عُلَمَاءُ الْكَلَامِ، ذَكَرَ ابْنُ أَبِي الْعَزَّازِ أَنَّ أَحَدَ عَوَامِ أَهْلِ السُّنَّةِ دَخَلَ عَلَى اثْنَيْنِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَكَانُوا يَبْحَثُونَ فِي مَسَائِلِ فِي الْعَقِيدَةِ وَفِي الْإِيمَانِ عَلَى طَرِيقَةِ الْكَلَامِ، فَقَالُوا لَهُ: مَا تَعْتَقِدُ؟ -مَا هِيَ عَقِيدَتُكَ أَنْتَ؟- قَالَ: أَعْتَقِدُ مَا يَعْتَقِدُهُ الْمُسْلِمُونَ، قَالُوا لَهُ: وَقَلْبُكَ مَطْمَئِنٌّ بِذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَقُولُ: فَبِكَيْ، وَقَالَ: أَمَا أَنَا وَاللَّهِ مَا أُدْرِي مَا أَعْتَقِدُ، وَاللَّهِ مَا أُدْرِي مَا

أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد"، لماذا لا يدري ما يعتقد؟ لأنه دخل في علم كلام ومنطقيات وجدل ثم يتبين له أن الصواب كذا، فيأتي رجل أكثر جدلاً وأوسع علمًا في المنطق فيذكر له حُججًا أخرى فينتقل إلى عقيدته، ثم يأتي شخص أوسع من هذا فينتقل إلى عقيدته، ولهذا يُكثر علماء الكلام من التنقل، تجد الواحد منهم كل يوم في عقيدة، ولمّا ذمّ السلف علماء الكلام قالوا: "إياكم والتنقل في الدين".

وقد جاء مرة رجل إلى الإمام مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والإمام مالك إمام دار الهجرة أحد الأئمة المعروفين، جاءه رجل وقال: "أنا أريد أن أتناظر معك، قال: فإن غلبتني؟ قال: تتبعني، قال: فإن غلبتك؟ قال: أتبعك، قال: فإن جاء شخص ثالث وغلبنا؟ قال: تتبّعه، قال: يا هذا ليس دينُ الله لمن غلب" يعني ليست المسألة أنا نجلس والذي يغلب الثاني يكون الصّح معه، ما الجواب على هذا السؤال إذا قال: ليس دين الله لمن غلب؟ الجواب الصحيح: من معه الكتاب والسنة، ما هو الدين لمن غلب، قد يجلس ضعيف الدين مع أحد كبار المتكلمين يُسكته، يُدخل عليه الكلام من هنا من هنا من هنا، حتى إنهم قالوا عن بعض علماء الكلام على وجه المدح وهو في الحقيقة ذم، يقولون: يستطيع أن يقنعك أن هذا الجدار الذي تراه أمامك أصفر أو أحمر أنه أبيض، ويبدأ يُجمّع لك الكلام ويلوي لك الحديث فتقول: لا، فعلاً هذا أبيض، من الكلام وطريقة العرض، فليس في هذا مدح، لما يكون الرجل يلحن في حجته ويُحسّن عرض الكلام هذا لا يعني أن ما يقوله حقٌ وصدق، فقال: "ليس الدين لمن غلب"، وقال عمر بن عبد العزيز: "من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل" فالدين ما يُجعل عرضة للخصومات، الدين كتاب وسنة، وقد أوضحت بالأمس الذي يريد أن يتعلم الدين يقرأ الآيات ويقرأ الأحاديث وينظر ماذا فهم السلف الصحابة ومن تبعهم بإحسان من هذه الآيات هذا هو الدين، أما خصومات وجدل وآراء وعقول ومقترحات هذه كلّها ركام يضر الناس ولا ينتفعون به.

ومن البلية أن بعض هؤلاء جعل اسم علم العقيدة لِمَا يريد أحد منهم أن يؤلف كتاب في العقيدة يسمى الكتاب علم ماذا؟ علم الكلام، ولما يكون أيضًا قسم في مؤسسة يتعلق بالعقيدة يقول: علم الكلام، وبعضهم يضيف إليها إضافة بغیضة يقول: علم الكلام والفلسفة، ماذا يبحثون هنا؟ العقيدة، وعنوان البيت يدلُّك على ما فيه، العقيدة التي يبحثونها ما هي؟ كلام وفلسفة، كأن الكتاب والسنة ما فيهما بيان للعقيدة الصحيحة التي تعبدنا الله سبحانه وتعالى بها.

هذا يقودنا إلى التنبيه على أمر وهو من المقدمات التي نحتاجها أيضًا في دراسة العقيدة، ألا وهو أن

من يدرس العقيدة ينبغي أن يعرف ما المنبع الذي تُستقى منه، وما المصدر الذي يُعول عليه فيها؟ إذا رأيت الناس في عقائدهم سواء منهم من هو منتسب للإسلام أو ليس منتسب له تجد عقائد وتجد مذاهب وتجد آراء وتجد محن وتجد أهواء، أمور كثيرة، والنبى عليه الصلاة والسلام أشار إلى أن هذا سيوجد في حديث العرياض بن سارية عندما قال: «إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً»، وفي الحديث الآخر قال: «وستفترق هذه الأمة على ثلاثٍ وسبعين فرقة، كلُّها في النار إلا واحدة» وهذا من أحاديث الوعيد، فهذه الآراء وُجدت كما أخبر عليه الصلاة والسلام وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، إن بحثت ونظرت في كتب الفرق والمقالات عن سبب كثرة هذه المقالات وتعدُّدها إلى أي شيء يرجع؟ استحضر في ذهنك إلى أي شيء يرجع؟ لو اعتصم الجميع بالكتاب والسنة، وعولوا تعويلاً كاملاً عليهما، أيوجد مثل هذا الخلاف؟! ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران]، فلو وُجد تعويلٌ كامل على كتاب الله وسنة نبيه ما يوجد شيء من هذا، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿فَإِنْ نَنزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، ولهذا لاحظ حديث العرياض لما ذكر الاختلاف عليه الصلاة والسلام قال: «إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً»، هنا سؤال يطرح نفسه: عندما تسمع «إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً»، من يريد لنفسه السلامة ومن يريد لنفسه النجاة إذا سمع «إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً» ما السؤال الذي ينقدح في ذهنه؟ ما النجاة؟ هذا هو السؤال الذي يطرح نفسه، ما المخرج؟ ما الحل؟ ما سبيل النجاة؟ فأجاب عليه الصلاة والسلام دون أن يُسأل، وهذا من كمال نصحه وتمايم بيانه عليه الصلاة والسلام: «إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» فأرشدنا عليه الصلاة والسلام أن المخرج بأمرين: لزوم السنة، ومجانبة البدعة، ولهذا أول ما بدأ ابن أبي داود منظومته الجميلة في العقيدة، قال:

تمسك بحبل الله واتبع الهدى ولا تكن بدعيًا لعلك تفلح

يعني: ليكن هذا هو مصدرك، وهذا المعول حتى تسلم، تتمسك بحبل الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وتتجنب البدع حتى تكون من المفلحين.

إذن ما سبب الخلاف؟ نحن الآن دلنا الحديث على أن السلامة بالرجوع إلى الكتاب والسنة والبعث

عن البدع، إذن ما سبب الخلاف؟ تنوع المصادر، والإعراض عن الكتاب والسنة، ولو نظرت في مصادر الفرق بعقائدهم تجدها مصادر مختلفة، منهم من مصدره في العقيدة: العقل، وكثير من ينحون هذا المنحى، ويقعدون قاعدة يقولون: نحن أصلاً ما عرفنا النقل -الذي هو الكتاب والسنة- إلا بالعقل، فلو قدّمنا النقل على العقل لقدّمنا المدلول على الدليل؛ لأن الدليل على صحة النقل هو العقل، لأنهم يقولون: ما عرفنا النقل إلا بالعقل، فكيف نقدّم النقل، ولهذا يقولون: العقل مقدّم.

وهنا يأتيهم أسئلة كثيرة: إذا قيل لهم العقل مقدّم، يأتي سؤال طويل عريض لا جواب لهم عليه ألا وهو: عقل من المقدم؟ هل عقول الناس عقل رجل واحد؟ أو عقول مختلفة، العقول كثيرة، فيه عقول الفلاسفة، وفيه عقول الملاحدة، وفيه عقول الزنادقة، وفيه عقول أهل الشهوات، وفيه عقول أهل الشبهات، فإذا كان العقل مقدّم فعقل من المقدم؟ فيا سبحان الله! ولهذا لما قدموا العقل تنوعت العقائد عندهم بحسب العقول التي يعولون عليها، كلما عولوا على عقل من عقول الناس ذهب بهم إلى نوع آخر من العقيدة، وهكذا تفتح عليهم أبواب من العقائد والعقائد بحسب تفاوت العقول، ولهذا أحد السلف قال: "لو كانت الأهواء هوى واحداً، لقليل: إنه الحق، ولكنها أهواء"، وأيضاً نفس الكلام نقوله: لو كانت العقول عقلاً واحداً لقليل: إنه الحق.

ثم إذا كان المقدم هو العقل يأتي سؤال آخر لهؤلاء: ما فائدة بعثة الرسول؟ إذا كان أي شيء يقوله الرسول ﷺ يُعرض على العقل إن قبله وإلا يُردّ إذن ما فائدة بعثته؟

ولهذا أحد العلماء المتقدمين ألزم هؤلاء إلزاماً، قال: "من لازم قول هؤلاء: أن يقول الواحد منهم: أشهد أن عقلي رسول الله" ما دام أن العقل هو المقدم وهو العمدة وما يأتي به الرسول يعرض على العقل فإن قبله العقل وإلا يُردّ إذن ليقول الواحد منهم: أشهد أن عقلي رسول الله!!

وأهل العلم ذكروا إلتزامات كثيرة لهؤلاء لكن قد يطول الكلام عليها، لكنني بمناسبة ذكري لما يورده هؤلاء للاحتجاج على تقديم العقل قالوا: الذي دلنا على صحة النقل من هو؟ العقل، يقول: لولا العقل ما عرفنا صحة النقل فإذاً كيف نقدم النقل عليه، أحد أهل العلم ضرب لهؤلاء مثلاً يوضح خطأ هذا التقرير، قال: لو أن رجلاً مستفتياً -يطلب فتوى- مشى في طريق يبحث عن مفت يفتيه في مسألة، فوجد رجلاً عامي مثله فسأله: قال له: أنا عندي مسألة مشكلة أريد من يفتيني بها، فقال له هذا العامي: أنا لست من العلماء ولا عندي قدرة على الفتوى ولكنني أعرف عالم محقق أدلك عليه تستفتيه، قال له: جزاك

الله خير دلني على هذا العالم، فأخذه إلى العالم فسأل هذا المستفتي العالم فأجابه، فلما انتهى العالم من الجواب، قال هذا العامي الذي دلّه إلى العالم: جوابه خطأ، وجواب مسألتك كذا وكذا ويجب أن تقبل قولي دون قوله؛ لأنني أنا الذي دليتك عليه وأنا الذي قلت لك أنه عالم، فما رأيكم، يأخذ قول العامي أو يأخذ قول العالم؟ العامي يقول: أنا الذي دللتك عليه ولولا أنني دليتك عليه ما عرفت أنه عالم، فيجب أن تقبل قولي ولا تقبل قوله، وأمامه عالم محقق راسخ في العلم وجوابه مسدّد وهذا ما عنده علم ويفتيه ويقول: لا بد أن تقبل قولي لأنني أنا الذي دللتك عليه وأنا الذي عرّفتك به أنه عالم.

هذا مثل هؤلاء يقولون: العقل هو الذي عرفنا به صحة النقل فإذا ن أي شيء يأتي به النقل نعرضه على العقل فإن قبله وإلا رددناه، هؤلاء مثل هذا العامي، إن صح التعبير نقول عنه: إنه أحق يريد أن يفتي ويريد أن يقرّر ويريد أن يحكم لا شيء إلا لأنه هو الذي دلّ الرجل إلى بيت العالم أو مكان العالم فظنّ أنه بهذه الدلالة إلى بيت العالم أصبح مفتي وشيخ يجيب على الأسئلة؛ لأنه يعرف بيت العالم ودل المستفتي إلى بيت العالم، هذا يوضّح لكم المنطق الذي يتحدث به هؤلاء الذين يقولون: أن العقل مقدّم.

فإذا قيل: قدّم العقل وأصبح هو العمدة في دراسة العقيدة هو العقل توجد مشكلة ولا أقول: توجد بل وجدت، أصبحت مدارس كثيرة ونشأت مناهج مختلفة والسبب: العقل، العقول متفاوتة، ولهذا قال الإمام مالك: "أو كلما جاءنا رجلٌ أجدل من رجل تركنا الكتاب والسنة لجدله؟!" يعني لو نعرض ديننا على عقول الرجال كلما يأتينا رجل أجدل من الآخر نترك الكتاب والسنة، ونمشي مع جدل هذا المجادل، فهنا تنشأ عقائد، إذن من المصادر التي وُجدت: العقل، وعرفتم ما فيه.

ومن المصادر وهذا يوجد عند المتصوّفة: الذوق والوجد والحس والتجربة، وأشياء من هذا القبيل، وهذا يكثر عند المتصوّفة تجد عندهم عبادات ما أنزل بها من سلطان، فإذا سئل عن دليله عليها أو مستنده في قيامه بها يقول: الذوق، أو يقول: الحس، أو يقول: التجربة، حتى إن بعضهم أصبح يقرّر الشرك الصّراح عبادة القبور، والدليل: التجربة، مثل قول بعضهم: قبر فلان ترياق المجربين، يعني: الذي يجرب يروح عند قبره ويدعوه يرى الثمرة، نسأل الله العافية، فأصبح الدليل على الشرك وعبادة غير الله التجربة، يجرب أصحاب الأذواق الفاسدة؛ لأن

من يكن ذاق مريض يجد في المر الماء الزلال

تجد ذوقه فاسد، فتأتي عنده عبادات هي خرافات وضلالات يجد مذاقها جميل، المذاق الجميل الذي أحس به هو لهذه العبادة ناشيء من ماذا؟ من فساد ذوقه، ثم يصبح هذا الذوق الفاسد تجربة للآخرين يبنون عليه، يقولون: جرب فلان وجرب فلان.

الآن تنظر تجد بعض الشَّرَكِيَّات توجد بين بعض الناس بالتَّجربة، مثل بعض الأساور التي يلبسونها عن العين أو الأشياء التي يعلّقونها عن الحسد، يسأل بعضهم بعضًا عنها يقولون: جربنا وفلانة جربت وفلان جرب، وهذا شيء معروف مجرّب، وينشرون الشرك والتعلق بغير الله بالتَّجربة، أصبحت التجربة دليل يستدلون به على صحة الحكم، وهكذا تجد أنه تنشأ عقائد وتنشأ أعمال باطلة بسبب بناءه على مثل هذه التجارب الفاسدة.

أيضًا آخرين يبنون عقائدهم على الاستدلال بالاسرائيليات والقصص والحكايات والمنامات، يأتي بعضهم بعبادة أو بأعمال معينة يقال له ما دليلك؟ يقول: رأيت في المنام كذا وكذا، وجاءني في المنام كذا وكذا وأخبرني بكذا، ويأتي بعقائد وعبادات المصدر: المنام، أو المصدر: حكايات، أو إسرائيليات أو قصص ونحو ذلك، فإذا أصبح هذا المصدر هو للعقيدة أو للعبادة فأني انحرافات ستوجد! وأي مذاهب ستتعدّد بسبب هذا الأمر!

ولو مضيتَ تبحث في المصادر التي جعلها هؤلاء للتلقي تجدها كثيرة، وأنت إذا نظرت هذه المصادر وتنوعها وتعددتها وكثرتها بين الناس عليك أن تحمد الله ﷻ أن هداك إلى كتابه وسنة نبيه ﷺ، فهذه والله نعمة، ولا عاصم من الضلال ولا وقاية من الفتن إلا بالعودة الصادقة لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم» -العقل؟ القصص؟ المنامات؟ التجارب؟ دلنا على شيء من ذلك؟- «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»، بعضهم تُعرض عليه الآية المحكمة والسنة المُتَّبَعَة التي تبين له خطأ هذا الأمر فيأبى قبول الآية ويرفض قبول الحديث؛ لأن فلان جرب، أو لأن فيه القصة الفلانية، يبني على أشياء نسأل الله العافية والسلامة، وينصرف عن كتاب الله وسنة النبي عليه الصلاة والسلام.

فأنت عليك أن تحمد الله أن هداك إلى كتابه وإلى سنة نبيه ﷺ، وعليك أن تسأله جل وعلا أن يثبتك على الاعتصام بالكتاب والسنة، وأن يعيدك من الفتن، وأن يسلمك من الأهواء والبدع، وأن يثبتك على هذه العقيدة الصافية النقية المستمدة من كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ.

والمقدمات في هذا الباب طويلة، فنكتفي على كل حال بهذا القدر، والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم
على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

